

الطبيعية أو المدفعية

(بقلم عبدالعزيز بنعبدالله)

– الطبيعية أو المدفعية : استعمل الغربيون المدفع لأول مرة في موقعة كريس Crécy بفرنسا عام (1342م / 743هـ) وسبقهم الغزنطيون إلى ذلك باستخدامه في احتلال (قلعة اشكر) عام (724هـ / 1324م) غير أن ابن الخطيب لم يذكر هذه الآلة باسمها وإنما أشار إلى "الآلة العظمى المتخذة من النفط التي ترمى بها كرة محماة " (اللمحة البدرية في الدولة النصرية) وقد لوحظ في (المجلة الآسيوية (ج1 ص237) أن هذه الكلمة عرفت في مصر لأول مرة عام (792هـ / 1383م). أما المرعات فهي أنفاض متفجرة (الأنيس المطرب ج 2 ص160). وكان المدفع يصنع في مصنع الأسلحة النارية بفاس الجديد في عهد أحمد الوطاسي (961هـ / 1553م) وكان في جيش عبد الله الغالب السعدي فرقة مدفعية من قدامى الأندلسيين (مناهل الصفا ص 42).

ولاحظ (أندراد) في تاريخه أن الشريف مولاي أحمد الأعرج حاصر أسفي عام (1534م) بمحلة تضم تسعين ألف فارس وراجل وعشرين ألفا من الرماة لتقويض السور ومهاجمة المدينة وكان مدفع "ميمونة" يقذف بكويرات من حجر ضخمة إلى حد أن المرء لا يمكنه أن يدير ذراعيه عليها وقد أرسلت إحدى هذه الكويرات إلى (الشبونة) حيث توجد في (كنيسة برار) وهي ملحوظة الآن في (المتحف العسكري بلشبونة (دوكاستر – س.أ. – السعديون – البرتغال ق2 ج2 ص633). وقد أهدى عبد الملك المعتصم شهيد معركة وادي المخازن إلى العثمانيين عشرين مدفعا يشتمل أحدها على تسع فوهات "حسب صاحب" تاريخ الدولة السعدية "المجهول وأنه في باب الجزيرة بالجزائر " (المطبعة الجديدة ص53).

وعين السلطان مولاي زيدان (سان مانديري) الفرنسي مهندسا ساعده على تأسيس مصانع لإذابة المدافع وتكرير ملح البارود وأصبح هذا المهندس يتمتع بحظوة كبرى في البلاط (دوكاستر – س.أ. – السعديون – ج3 المقدمة). وكانت "المدافع تخرج بالنفط في الأفراح وتسابق الخيول" (الاستقصا ج3 ص60).

– المدافع الإسماعيلية : كان بقصر الرياض بمكناس مائتا مدفع.

عمل السلطان سيدي محمد بن عبد الله على تأسيس مصانع تذيب المدافع بالمغرب واستقدم لذلك رماة وصناعا من الأستانة ولكن الواقع أنه لم يتجاوز مصنعا للقتال لم يدم طويلا بتطوان غير أن السلطان حصل برسم الشراء أو الإهداء من معظم دول أوربا على أزيد من مائتي مدفع وستين مهراسا. (وصف وتاريخ المغرب – كودار ج1 ص146).

وقد انكب المولى محمد بن عبد الرحمن على دراسة العلوم لا سيما منها الفنون العسكرية حتى قال كل من (فرانسوا شارل رو) و(كايي) بأن هذا الملك اخترع مدفعا.

وقد وجه الحسن الأول طلبه إلى (مونبيليي) Montpellier ومدن أوربية أخرى لدراسة الهندسة العسكرية وإعداد الأطر التي ستعزز مدفعية القلاع ومدفعية الميدان، ولم تكن المدفعية تؤثر في الطابية حيث لاحظ المؤرخ الإنجليزي هاريسون أن المدفعية لم يكن لها أي مفعول على البنايات المغربية المؤسسة بالطابية سواء في المدن أو الواحات الصحراوية وهو شئ ملحوظ إلى الآن (دوكاستر – س.أ. – إنجلترا – ثامن أكتوبر 1630) وقد وقعت بعد الاستقلال محاولة هدم جانب من السور الموحد بالرباط وذلك بدون جدوى وهذا السور مبني بالطابية . أما الطابجيون وهم الرماة المدفعيون فقد كان منهم أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله (عام 1200هـ / 1785م) مائتان بأسفي في حين كان بين جيش وبحرية وطبجية ألفان وخمسمائة في الصويرة وألفان بالعدوتين والف وخمسمائة بالعرائش ومائتان بأصيلا والساحل وثمانمائة بتطوان (الاستقصا ج4 ص117).

وفي عام (1273هـ / 1856م) كتب المولى عبد الرحمن إلى أمناء المراسي منهم عبد العزيز محبوبا لمرسى العدوتين يأمرهم باختيار عشرين شابا نجيبا لتعلم علم تاطبجيت (أي المدفعية) بقيادة معلم ماهر أو معلمين حتى يتقنوا رماية المدفع والمهراس وذلك بالإضافة إلى من في كل ميناء من الطابجية وترتب لكل واحد خمس عشرة أوقية شهريا مع الزيادة للنجباء ولكل معلم ثلاثون أوقية علاوة على راتبه المعلوم. (الاستقصا ج4 ص26).

وكانت كل فرقة من المدفعية وآلياتها يرأسها قائد رحي منهم القائد إسماعيل الرباطي وكان المعلم (التهامي بيرو) الرباطي هو مدرب طبجية طنجة أو الساهر على تكليفها بالمهام المختلفة كما كان محمد صندل أحد قادتها بالرباط في العهد السليمانى وقد توفي عام (1231هـ) خلال حركة السلطان لأية عطا (تاريخ الضعيف ص399).

وكان القائد أغا التركي يشرف في عهد السلطان الحسن الأول على فيلقين من الرماة أو الطبقجية يكونان خمسة عشر مائة (المغرب المعاصر إمبراطورية تنهار ص235)، وكان كل رام مسلحا بنوع من البنادق ذات مكبس بدون حراب أما عتاد الفيالق فكان يتركب من خمسة وعشرين مدفعا وثمانين رشاشات وبطارية وثمانية مهابيس وقاذفات أخرى بالإضافة إلى نحو الخمسين من العرفاء . يطلق عليهم اسم مهندس قد تدربوا على الحساب والهندسة أما في طنجة فإن الطبقجية كانوا يدرّبون على يد أحد ضباط الصف الفرنسيين ويتفرون على ستة مدافع وثلاث بطاريات (ص259) وقد تكونت الفيالق الأولى في العهد الحسني بإشراف قائد يعرف بالحاج علي التونسي بالإضافة إلى قائد تركي (ص264) وكان رجال الطبقجية يساعدون قاضي الرباط في الزجر والسجن كرجال الأمن (الاغتباط ج 1 ص33) أمثال محمد بن محمد فنيش كبير الطبقجية بالرباط قتل (عام 1236 هـ) بفاس وكذلك الطيب الداودي الذي رافق المولى سليمان في حركته إلى بلاد غريس (تاريخ الضعيف ص399) وقد لاحظ (شارمس) أنهم كانوا مدرّبين أحسن تدريب في العهد الحسني وكان رئيسهم مولاي أحمد الصويري الذي تلقى تدريبه على يد المهندس الفرنسي عبد الرحمان العليج وكان قد توجه عدد من المغاربة خفية بأمر من السلطان إلى إنجلترا وأسبانيا وحتى أمريكا والبنجابي هو المكلف بقذف القنابل (بومبة = قنبلة) (تاريخ الضعيف) وهي كلمة تركية :

المراجع :

- (الطبجية (مدرسة... بفاس (بباب دار السلطان مولاي سليمان) (الاستقصا ج 4 ص162).
- الطبجية والبحرية تساعد القاضي بالرباط (الاغتباط ج 1 ص133).
- محمد بن عبد الله ملاح السلوى معلم الطبجية بسلا في عهد المولى عبد الرحمن (الاستقصا ج4 ص180)
- علي التونسي: قائد كان يشرف على تدريب أحد فيالق الطبجية في العهد الحسني.
- "العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالآلات الحروب والمدافع " (لإبراهيم بن احمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي الرياشي من أهل القرن الحادي عشر).
- رسالة في الهندسة المدفعية والعسكرية الفت بالأسبانية ونقلها إلى العربية أحمد بن قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي (خج ج 87/خم 2346 / المكتبة الوطنية بتونس (4098/1407م) / مكتبة دبلن - جستر - بيتي 4107 (125 ورقة).
- كتاب "الرماية وعمل المدفع " بمكتبة الكلاوي في (خج) لإبراهيم الأندلسي هي أرجوزة من نظم عبد النبي بن العباس الشديد الصنهاجي الرباطي.
- (نزهة المجالس في علم أحكام المدافع والمهابيس) عدد أبياتها (394) يقول بأن الذي حمله على نظمها هو السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام وقع الفراغ منها عام (1266 هـ/ 1850م) ذكر فيها الرماية بالمدفع والمهراص والبارز (نوع خاص من المدافع) وطرق استخدامها والبنب والبارود . (راجع بحث المنوني - مجلة البحث العلمي عدد 9 العالم الثالث ص 96).
- منها نسخة في المكتبة الملكية بالرباط رقم 1043 من ص1 إلى 30 مع رسالة أخرى لمؤلف مجهول والإسم هو "الباز في علم المدفع والمهراز " ذكر فيها في الأول اسم السلطان المعاصر وهو مولانا عبد الرحمن (منها نسخة في الخزنة العامة بالرباط رقم د 3367 ضمن مجموع من ص197 إلى ص185 .
- "تذكرة المجالس في علم المدافع والمهابيس " كذا أرجوزة للمكي بن قصابة بن محمد الرباطي نظم فيها قواعد لمحمد ابن محمد سباطة الرباطي وضعها عام (1288 هـ/ 1871م) في (532) بيتا تناول فيها نفس موضوعات الكتاب الأنف الذكر مع توضيح مواضعها برسوم عديدة منها نسخة بالمكتبة الملكية بالرباط وءآخر المجموع رقم 1043 (من ص 28 إلى 112).
- "روضة الجهاد الفائق لمن أراد الغزو بالصواعق " في (300) بيت ل احمد بن احمد العرائشي التمساني الريفي (فرغ منها عام 1195 هـ / 1780م تحدث فيها عن شحن المدافع والمهراص بالبارود وعن القذائف والقنابل الكروية (خج 1342 / يوجد أيضا بالخزانة الأحمديّة ضمن (مجموع المدافع الهولندية لمولاي زيدان)
- دوكاستر ق1 - السعديون - هولندا ص 3 ص142 وما يليها.
- مدفع أسباني بسلا (هسبريس 1956 (2-1) / تاريخ الرباط Caillé (ص452).